توفيق الحكيم روائياً

بقلم الدكتور سهيل ادريس

تمتاز آثار توفيق الحكيم القصصية بطابع من الجدة والابتكار لا نقع عليه كثيرا في انتاجنا القصصي المعاصر ، واهمية هذا الطابع تكمن في ان الانسان والفنان يلتقيان في آثار الحكيم على خير ما يكون اللقاء .

وهمنا هنا هو ان نستجلي مظاهر هذا اللقاء في مؤلفاته الروائية وحدها ، بالرغم من ان هذه المظاهر ليست اقل بروزا في آثاره المسرحية .

على ان ما يكسب انتاجه الروائي قيمة خاصة ، هو ان فيها وحدة تكاد تكون كاملة ، تثبت عناصرها فهما عميقا للحياة وحسا دقيقا للفن . فحياته قبل كل شيء حياة فنية تنشد المتعة الفكرية الرفيعة ، دون ان تهمل الصلات التي تشد الرجل الى المادة والارض . وهذا ما يشرح ذلك الصراع المستمر ، في حياة المؤلف وكتبه ، بين الواقع والمثال . فالخيال في نظره هو « حلم الحياة الجميل » وان العالم الواقعي لا يكفي لوجود البشر ، لانه « أضيق من ان يتسع لحياة انسانية كاملة » . ويكاد هذا الصراع ينتهي دائما بهروب يكرس انتصار الروح . فهذا هو الخط العام الذي يجمع بين خير رواياته : « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « راقصة المعبد » و « الرباط المقدس » : ان الروح هي التي تنتصر على المادة ، والنفس على الجسم ، والمثال على الواقع .

والمتعة التي يمكن للمادة ان توفرها ، ليست في نظر توفيق الحكيم الا متعة عابرة لن تلبث طويلا حتى تعقب خيبة وندما . والذي يخلد ابدا انما هي المتعة الروحية وحدها التي تغني الروح وتوفر له خير لذائذ الحياة . ولهذا نرى ابطال هذه الروايات يتعزون اخر الامر من اخفاقهم المادي الجسدي بالمتع الروحية . ونحن في هذا ازاء ثلاث مراحل لا تكاد تخطيء : رغبة فخيبة ففرار !

فبعد ان اصيب محسن واعمامه في « عودة الروح » بخيبة في حبهم ، فروا الى ميدان العمل الوطني الذي طهر ارواحهم وشفاهم . وقد رأيناهم ذات لحظة غارقين في الاسى واليأس ، ولكنهم ما لبثوا ان امتلأوا حماسة واستخفهم النقاش في الوطنية . وكان محسن أشدهم تغيرا ، فان قلبه الذي حطمته خيبة الحب ، عاد يخفق من جديد في سبيل وطنه . ومن اجل هذا الوطن مضى ينفق مذخور حبه الذي كان يكنه لسنية . ثم ان الالام النفسية التي عاناها جعلته اقوى على التضحية واشد احساسا بالبذل .

ومثل هذه الخيبة قد اصابت بطل «عصفور من الشرق» في حبه للفتاة الفرنسية . وقد هرب هو ايضا الى عالم الفن ، وتحقق شفاؤه وهو يستمع الى موسيقى بتهوفن ويتأمل لوحات كبار الرسامين ، وهو الذي قال ان « عالم الواقع الذي نعيش فيه لا يمكن ان يكفي الحياة الانسانية »

ولا تختلف عن ذلك خيبة بطل « راقصة المعبد » الا بانها اشد وعيا ، والبطل هو نفسه اوعى لفراره من سائر الابطال . انه يدعو اله الفن الذي يخدمه فيقول بصوت متهدج : «انت الوحيد الذي يمكن ان يعزيني من اثقال الحياة » (ص ١٥١) ثم يلتفت الى نفسه فيتمتم : «اجل، ليس امامي مع الاسف الا سمّاء الفن ».

وفرار « راهب الفكر » في « الرباط المقدس » هو واع اشد الوعي . فبالرغم من ان الصراع بين الجسم والروح يستمر طويلا ، فهو يكرس انتصار الروح في آخر المطاف، وحين يفر المفكر من المراة الساحرة ينجح في ان يصيب الشفاء .

وليست بنا حاجة لان نشير الى ان فكرة الفرار هذه ليست الا تمثيلا لبضع تجارب حقيقية تعرض لها المؤلف نفسه . ولعل حياته العاطفية قد دمغت بسلسلة من الاخفاق لاننا نلاحظ دائما ان المراة هي اصل هذا الفرار ومصدره وقد نتج عن هذا نظام فكري يكاد ان يكون فلسفة حياة كاملة نرى المراة فيها رحى الدائرة .

وبالرغم من ان توفيق الحكيم يعلن نفسه « عدو المراة »، فانه يخضع لتأثيرها الى ابعد حد ، حتى انها لتبدو احد شواغله الدائمة ، وهذا يعني انه لا يكرهها ، الا ان احتقاره الظاهر لها لا يصدر عن بغض حقيقي ، وانما عن خوف وخشية . ولعله حين اصيب بخيبة شديدة من اول علاقة له بالمراة ، بات يخشى خيبات جديدة ، فاذا هو يضطر الى الابتعاد عنها ، واذا هو يحسب انه اصبح لها عدوا ، بسبب من هذا الابتعاد نفسه . والحق ان رواياته ومسرحياته وقصصه تكشف عن انه يبحث عن المراة اكثر مما يتجنبها ، وحتى حين يحاول الفرار منها يجد نفسه

اشد انجذابا اليها . وان هذا التعاقب بين الفرار والنشدان هو الذي يطبع آثار الحكيم بطابع القلق ويمنحها قيمتها البشرية .

ذلك ان مؤلف « الرباط المقدس » فنان صادق يستجيب لجميع النوازع الانسانية في كيانه . وهذه النوازع بعيدة عن ان تكون دائما منطقية ومعقولة: انها تستجيب للتردد والحيرة والتقلبات والتناقضات الغريبة،وان الحكيم ليصيب نجاحا بعيدا في تصويرها في هذه الروايات ، ولاسيما في « الرباط المقدس » حيث يتردد « المفكر » طويلا بين لذته وواجبه، بين جسمه وروحه . بل هو على وشك ان يسقط لولا ان يتداركه صوت في التلفون ، فيوقظه من حلمه الشهواني ، وهذا الصوت يرمز بلا ريب الى العقل . وكان قد ادرك انه بالغ في التضحية بلذاته الجسمية على حساب مباهجه الروحية ، وانه لن يعود الآن عن هذه التضحيات ولكنه لا يخفي مع ذلك حسرة عميقة انه اضاع كثيرا من الوقت وهو يريد في حياته اخضاع الجسد للفكرة ويوافق على حرمان شديد قاس يصعب تحمله .

ولكن لكي يكون الرمز بناء حقا، فينبغي ان يتناول قضايا محسوسة ، قضايا اجتماعية مثلا . والواقع ان آثاره بعيدة عن ان تكون ثمرة هوى في نفسه لا تكيفه دوافع بصيرة . انها بالعكس آثار ملتزمة تخضع لتأثير المجتمع ولا يعوزها شيء لكي تحاول ان تخضع هذا المجتمع لتأثيرها . وهذه التأثيرات المتبادلة هي التي تجعل من مؤلفات توفيق الحكيم اثرا حيا نابضا بالحياة .

فموضوع « عودة الروح » يدور حول بعث مصر الجديدة وكفاح المصريين من اجل الحرية . ولئن كان المؤلف لا يصور الجذور السياسية لهذا الصراع ، فهو يصور على الاقل وسطه الاجتماعي. والحق انه يرسم حياة الشعب المصري في طبقته المتوسطة التي تستولي عليها في المدن والارياف روح واحدة « هي روح الفلاحين المصريين القدامى التي اقامت حضارة كبيرة في عهد الفراعنة والتي تقوم عليها في مصر الحديثة اركان نهضة لبلاد »(١) فالمنظور الرمزي هو الذي يكسب « عودة الروح » كل قيمتها. وان المؤلف اذ يصور الوسط الذي تهيأ فيه الصراع المصري فيصور حادثا من اخطر ما واجهته مصر في تاريخها الحديث ، انما يقيم الدليل منذ كتابه الاول على ما ينبغي ان يشغل الاديب العربي الذي يعيش قضية قومه ومجتمعه.

فالرواية من هذه الناحية وثيقة هامة عن حالة الشعب الاجتماعية اذ يبدأ تطوره بعد انعاش مدة طويلة سجين جدران التقاليد والعادات البالية . ومحسن يجسد واحدا من هؤلاء الابطال الاجتماعيين الذين يثورون على اوضاعهم ويسعون الى تغييرها ، اذ نراه يهزأ بالبورجوازية المترفة التي يعيش عليها ذووه ويرفض ان يتلبس بها امام زملائه في المدرسة وينخرط ، عندما يعي ، في العمل الجماعي الكبير .

واننا لنجد في رواية « عصفور من الشرق » مرحلة جديدة من حياة محسن هي فترة مكوثه في باريس . وحبكة هذه الرواية قليلة الاهمية في ذاتها ، والواقع ان المؤلف اراد فيها ان يقارن بين الروح الشرقية والروح الغربية . وتأتي هذه المقارنة على لسان العامل الذي يعتقد « ان انبياء الشرق قد فهموا ان المساواة لا يمكن ان تقوم على هذه الارض ، وانه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الارض بين الاغنياء والفقراء فأدخلوا في القسمة مملكة السماء وجعلوا اساس التوزيع بين الناس والارض والسماء معا . فمن حرم الحظ في جنة الارض فحقه محفوظ في جنة السماء . ولو استمرت هذه المباديء وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما غلى العالم كله في هذا الاتون المضطرم ولكن الغرب اراد هو ايضا ان يكون له انبياؤه الذين يعالجون المشكلة على ضوء العلم الحديث. فجاء نبينا كارل ماركس ومعه انجيله الارضي «راس المال» واراد ان يحقق العدل على هذه الارض، فقسم «الارض» وحدها بين الناس ونسي « السماء » فماذا حدث ؟ حدث ان امسك الناس بعضهم برقاب بعض ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتا على هذه الارض . »

ولئن لم تكن في هذه الرواية معالجة معمقة للواقع الاقتصادي للانسان ، فان فيها دعوة حارة للشرقيين ان يحتفظوا بنصيب الروحانية في حياتهم تجاه مادية لا اخلاقية مفسدة . اما اتجاه « الرباط المقدس » فاقل تجريدا اذ هي نقد للفساد الاجتماعي الذي تعيش فيه نساء مبهورات بالعصرية البعيدة عن مفهوم الخلق الكريم .

ومهما يكن من امر ، فان جميع آثار الحكيم تثبت انه واع للمجتمع الذي يعيش فيه . ان التقلبات والتطورات الاجتماعية تجد صداها في مؤلفاته دائما . ومن المعلوم ان حادثتين هامتين هزتا مصر عقب الحرب العالمية الاولى. الحادثة الاولى سياسية تتعلق بالحرية التي كانت البلاد

(١) بروكلمان « تاريخ الاداب العربية » ذيل ٣ ص ٢٤١

تسعى لانتزاعها من يد المحتل ، والثانية اجتماعية تتصل بوضع المرأة . ولاسيما بقضية الحجاب . وقد صور الحكيم الصراع الاول في « عودة الروح » وفي مسرحية رمزية كتبها عام ١٩٢٣ بعنوان « الضيف الثقيل » ، كما عالج القضية الثانية في مسرحية اخرى بعنوان «المرأة الجديدة»!

وتجد الحرب العالمية الثانية اصداءها وعواقبها في المجتمع المصري في قسم آخر من انتاج الحكيم . فان مجموعة مسرحياته التي ظهرت عام ١٩٥٠ في مؤلف ضخم بعنوان « مسرح المجتمع » تحمل الدليل على ذلك ، اذ نجد فيها تصوير سلطان المال الطاغي وتأثيره في المجتمع، وفساد اثرياء الحرب ومحاولة افسادهم الشرفاء (اللص) ومداهنة الموظفين ورياءهم تجاه رؤسائهم (بين يوم وليلة) والنزعة الوصولية (مفتاح النجاح) وجهود المرأة للحصول على حقوقها (النائبة المحترمة) الخ..

وبالرغم من ان كثيرا من مسرحيات الحكيم تجريدية ، فانها الى جانب آثاره الروائية والقصصية لا يمكن الا ان تشير الى ايمانه بان الاديب لا بد ان يحمل رسالة اجتماعية. ونحن نجد هذا المفهوم في بعض مقالاته وارائه التي جمعها في كتبه الفكرية الاخرى . يضاف الى ذلك ان من مميزات مؤلفاته ان لها نزوعا اخلاقيا دون ان يؤثر ذلك في فنه تأثيرا سيئا . ومرد هذا ان الحكيم بعيد عن ان يكون داعية. ان شواغل الفنان عنده تحتل من القيمة والاعتبار مثل ما تحتل شواغل المفكر او الكاتب الاجتماعي. وان فنه وفكره جميعا هما اللذان يدفعانه الى الصعيد الاول ، نعني انه روائي فنان وليس كاتبا واعظا . فهو يجتنب ايقاف الحركة او العمل الروائي اوحتى ابطاءهما ليستطرد او ليعظ . وان الاراء العابرة لتي تأتي لتوضح نظريته غالبا ما تندرج في مجموع الحبكة ، باستثناء بعض المقاطع الاخيرة من حديث العامل الروسي في « عصفور من الشرق » . ان الاعمال هي التي تتكلم ، وان الشخصيات تتقابل وتتصادى من غير ان يتدخل المؤلف او يظهر ، وان القاريء هو الذي يستنتج الفكرة ويستخلص العبرة وينتهي الى الخاتمة التي تفرض نفسها بقوة لا تستطيع اية موعظة ان تفرضها.

في هذا كله يبدو توفيق الحكيم الفنان . انه لا يصف ولا يرسم ولا يصور : وانما يوحي ببعض التفاصيل وبعض الخطوط التي تبني مركبا سريعا ، يبدو وكأنه اطار او « ديكور » . ثم يأتي خيالنا فيكمله بما ينسجم مع الواقع، فلا ندهش اذ نرى أمامنا بعد حين صورة الاماكن التي تقوم فيها الحادثة .

والواقع ان التاليف المحكم الذي يظهر في هذه الروايات والذي تنتفي منه الاوصاف الطويلة والفصول الزائدة يلائم هذا اللون من الادب ملاءمة كبيرة . فليس ثمة حاجة للاعداد او التمهيد . ولا لتلخيص السابق ، ولا لتحليل الشخصيات تحليلا طويلا . ذلك اننا نرى الاشخاص وهم يتحركون ويعملون ، وما تلبث نتيجة صراعهم ان تظهر . ويحرص الحكيم ، وهو يتقدم بقصته خطوة خطوة ، على ان يقذف فيها عناصر وحوادث جديدة تجذب اختلاطها اهتمام القاريء، ثم تأتي حوادث اخرى لتشرحها فيما بعد.

وخاصة اخرى من خواص التكنيك الفني لدى الحكيم يتجلى في قدرته على تمييز الاشخاص . فلكل منها مزاج وطابع معين ينمان عليه . لنأخذ مثلا شخصيات « عودة الروح » : انها مميزة تمييزا رائعا . زنوبة : الفتاة البائرة التي تقضي اوقاتها بين ورق اللعب وضروب السحر التي ترجع في أصلها للخرافات المتناقلة بين الفلاحين. ومحسن الفتى النضر الخجول المتردد المتليء قلبه بحب صامت لسنية . وسنية هذه : الفتاة اللعوب بين آلة البيانو والشرفة المطلة على المقهى الذي يدخن فيه الشبان ، تبحث بواقعية غير شرقية عن زواج عاقل، وسليم : الضابط المتفكه الساخر الذي كان يراسل سنية بالخفية . وحنفي رئيس الاسرة الذي لم يكن يملك الرصانة التي تتطلبها شخصية معلم المدرسة . ولكنه كان مع ذلك سيدا في بيته لا يجرؤ احد على ان يجلس الى الطعام قبله . ولاسيما مبروك : الخادم الذي تنقصه الحماسة ولكن لا تنقصه روح النكتة . ومثل هذا يقال عن بطلة « الرباط المقدس » التي حللها المؤلف تحليلا مدهشا خلال شخصيته هو نفسه . فبفضل بعض تصرفات لاواعية ، كانت تكشف عن احوال نفسيتها: انها تنتسب الى تلك الفئة من النساء اللواتي يحرصن على ان يعين شخصيتهن ، وبوسعنا ان ندرك من ذلك سبب قبولها الزواج من رجل ذي كفاءة فكرية متوسطة.

ولكن الحق ان الشخصية التي رسمت اكمل رسم، انما هي الشخصية التي تعيش عبر هؤلاء الابطال جميعا ، شخصية المؤلف نفسه ، بطل الروايات كلها . غير ان توفيق الحكيم بعيد عن ان يكون رجلا واحدا : انه يتضاعف الى ما لا نهاية انه ليس موجودا في هذه الشخصية او تلك ، ولكنه الصراع بين شخصياته ، صراع واع تارة ، نصف واع تارة اخرى ، ولا واع احيانا . وهو في هذه الروايات جميعا بلورة تحلل الالوان الرئيسية لافكاره وقضاياه وشواغله التي هي «اخراج» الحس الدرامائي الداخلي لدى المؤلف . وقد عرض الحكيم لقضية العلاقات بين المؤلف واشخاصه في « القصر المسحور » . وفيه يرى ، ويوافقه في ذلك طه حسين ، ان الاديب يملك مطلق الحق في ان يخلق اشخاصه كما يريد وكما يمليها عليه فنه ومنظوره الادبي. فانما الذي يهمه ويعنيه ان ينجز هذا الفن ويرفع مستواه على حساب كل شيء .

ثم ان ما يوفر لابطال الحكيم حيوية خاصة ، ذلك الحوار القوي الذي يعتبر خير عناصر التكنيك الروائي لديه . فهو يمتاز باقتصاد عجيب في الكلمات وقوة للايحاء نادرة في الادب العربي. والحق ان اسلوب الحكيم كله يتركز في حواره، وذلك الاسلوب المختصر الواضح الخالي من المرادفات والاستطرادات يبرز الكلمات المعبرة لتي تزرع الديكور وتقدم الاشخاص وتظهرهم في حركاتهم . وبفضل قوة الايحاء هذه تلد العبارة بسرعة تمثيلا حسيا مباشرا وتعطينا صورة

حية للحقيقة المصورة او الموصوفة .

وتوفيق الحكيم بعد ذلك كاتب فكاهي كبير ، وسلم تأثيراته الهزّلية على غنى عظيم ، وهو يعبر عن ردود الفعل لديه ، ونحن نرى رواياته ، بفضل هذه الفكاهة المتنوعة الغزيرة الحاوة ، سهلة القراءة ، من غير ان تكون بسبب ذلك سطحية . وهو حريص على ان يستغل اللحظات المناسبة للاضحاك ، فليس ثمة درامة عنده لا تعرف لحظات من النكتة والابتسام . وان رواية « عودة الروح » التي تنطوي على حقيقة ذات معنى تراجيدي وبطولي تتخللها كثير من الفصول المضحكة ، وفكاهتها من الفكاهة الناعمة الدقيقة التي لا فجاجة فيها ، وهي تتناول بالسخرية كثيرا من آفات المجتمع المصري و من « الشخصيات ــ النماذج » .

وبينما يعمد معظم الروائيين العرب الى التحليل النفسي، يؤثر توفيق الحكيم الحركة المباشرة الطبيعية الخاضعة لمتطلبات الابطال . فوسط الحدث الروائي وظروفه وملابساته توحي بها ايحاء اجوبة الابطال التي بها يقف القاريء على الدقائق المولجة بتعيين الحادثة في مختلف ابعادها . ومع ذلك ، فليس من العسير ادراك جميع مقاصد المؤلف من اللمعات الذهنية ومجرى السرد وامتزاج الحساسية بالسخرية العاطفية ، وحس اللون المحلي الصميم .

***

كتب توفيق الحكيم في تمهيد لكتابه « يوميات نائب في الارياف » ما يلي :

« لماذا ادون حياتي في يوميات ؟ الانها حياة هنيئة ؟ كلا، ان صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها ، انما يحياها . اني اعيش مع الجريمة في اصفاد واحدة . انها رفيقي وزوجي اطالع وجهها في كل يوم ، ولا استطيع ان احادثها على انفراد . هنا ، في هذه اليوميات املك الكلام عنها وعن نفسي وعن الكائنات جميعا . ايتها الصفحات التي لن تنشر! ما انت الا نافذة مفتوحة اطلق منها حريتي في ساعات الضيق ! »

في هذا التمهيد يظهر خير ظهور الرجل والفنان في توفيق الحكيم . الانسان والفنان اللذان يغذي احدهما الاخر ويبرر احدهما الاخر : ان الفنان هو سبب وجود الانسان ، وان الانسان هو الينبوع الذي لا ينضب الذي يستمد منه الفنان حيويته . وهكذا يكون الحكيم متعاقدا مع فنه تعاقدا كاملا ، وهو لا يصب شخصيته وتجربته كما وعتهما الحياة ، ولا يعطينا ترجمة حرفية لتجربته المعاشة ، وانما ترتبط رواياته بطاقة معنوية رهيفة ، فتعكس نزعات رئيسية ، لا اعمالا ولا عواطف عابرة . انها تشير الى اتجاه ، وتعبر عن نظرة الى الحياة تشكل فلسفة حياتية بذاتها ، وتحقق بذلك مطلبا رئيسيا من مطالب الاثر الفني القيم .

سهيل ادريس

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت شارع سوريا ص.ب. ٣١٧٦ تلفون ٢٧٩٨٣

تاريخ العلامة ابن خلدون

يسر دار الكتاب اللبناني ان تزف البشرى الهامة الى جميع وزارات التربية والتعليم وجميع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية :

انها تعلن عن قرب انتهاء طبع الموسوعة الكبرى للعلامة ابن خلدون ، وقد انتهت الان من طبع المجلد السادس ، وقريبا جدا ينتهي طبع المجلد السابع .

ان دارنا اذ تلفت انظار جميع هذه المؤسسات وجميع الادباء والعلماء في الاقطار العربية ان ثمن المجموعة الان مئة وعشر ليرات لبنانية تحث من يهمه امر اقتناء هذه الموسوعة على الاسراع بحجز مجموعته ، اما عن طريق الناشر رأسا او بواسطة المكتبات الكبرى في العالم العربي ، مع العلم بان ثمن المجموعة الكاملة سوف يصبح عند انتهاء الطبع ، اي بعد مضي ثلاثة اشهر مئتين وعشرين ليرة لبنانية .

هذا وقد صدر حتى الان ثلاثون جزءا ، ولم يبق الا ثلاثة اجزاء فقط ، ونلفت نظركم ايضا الى الفهارس العلمية الهامة والى ان النسخ محدودة .

فبادروا الى اقتناء نسخكم .